

ارتقاء الكائن الإنساني

موسى ديب الخوري *

يشكل الماضي ذاكرة هائلة تحفظ تاريخاً طويلاً من التجارب الإنسانية والكونية. إنه يمثل بنية كلية تنطوي فيها الحصيلة النفسية والمعرفية لتجربة الإنسان في الكون، بل ولتجربة الحياة في الكون. وهذا الماضي هو الذي يربطنا بالوجود بما هو حقيقة انتمائنا في كل لحظة لصيرورة الحياة المتطورة والمتجلية فينا.

---

* مترجم وباحث في العلوم والطبيعة والكون (سورية)

- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

إن تجربــة الإنســان عــبر العصور هي حقيقة راسخة لا نستطيع التنصل منها لأنها باقية في ذاكرتنا الجمعيــة وفي ذاكرة الكون الكــبرى. وإن كنَّا لا نعرف بعــد طبيعة هذه الذاكرة الكلية، هذه الخبرة الكونية المكتنزة، فإننــا نتيقن من وجودهــا لأنها في الجوهر القانــون الطبيعــي في حركتــه الديناميكية عبر لانهايتين كــبرى وصغرى. ومن هنا فإن صيرورة التجربة الكونية تعتمد على وجودنا طالما كنــا موجودين. لكن الخــبرة الإنسانية باقية ومستمرة في الكون أبقينا أم فنينا. فإذا لم نبال بمصيرنــا واستهترنــا بقيمة وجودنا وردلنا معــاني خبرتنا وتجربتنا عبر العصور، فإن الخبرة الكونية ليســت مهملة لخبراتنا، وإن التجربة الكونية ليست مستهترة بتجاربنا. فهذه الخبرة الكونية هي حكمة الكون ووعيه المستتر والقانون النابض في كل ذرة وكل رعشة حياة. وهذه الخــبرة هي المعرفة الحقة التي على الإنســان أن يتحمل مسؤوليته بالمشاركة فيها.

إننــا لا نهتــم اليوم، في زحمــة انشغالنا بحيــاة استهلاكية منهكــة، إلى أننا بتنا نقف عند منعطــف حاسم في سياق تطورنا. لا بل إن فكــرة تطورنا نفسها لا تشغلنا إلا كمسألة وقتيــة ومعلوماتية، ويغيب عنا تماماً أن هذه المسألــة تمسنــا مباشــرة، في صميمنا، لأننا نتطــور في الحقيقة من لحظــة إلى لحظة، ونتحول باستمــرار نحو إمكانيــات متنامية فيزيولوجيــاً ونفسياً وعقليــاً وروحياً.. فلئن كان الإنســان حتى عهد قريــب غير مدرك لمعنــى وجــوده علــى الأرض، وغــير عارف لتاريخــه عليها، فقد بات يعــرف اليوم أكثر مــن أي وقت مضى أهميــة دوره في صيرورة تطور الحياة على الرغم من تجاهله له، الأمر الذي يضعه أمام مسؤوليته وجهاً لوجه. فلا مناص له من تحمل هذه المسؤولية، وإلا كان غــير جدير بالدور الذي أوكل إليه. وبقدر ما تمثل هذه المرحلة من تاريخ الإنسان والحياة منعطفاً حاسماً في تبلور إمكانية التوافق بين الاختيار الحر والواعي والتناغم مع الطبيعة والكــون. فإنها لمحملة بنتائــج ستشكل يقيناً زخماً هائلاً في ذاكــرة الكون مما سيحرض بالتأكيد تطوراً للحيــاة موازياً لهذه النتائج. وضمــن هذا المنظــور نستطيــع أن نرى إلى الماضي كخلفيــة ديناميكيــة للحاضر (سبق وأشرنا إليها) تعمم المعارف والمشاعر البشرية وتحقــق الاستعــداد النفســي والعقلي عند الجماعات والأفراد لتقبل مقدرات جديدة أو حتــى لتفتح كينونات جديــدة. ومن هنا فإن مسؤوليــة الإنسان مضاعفة. فهــو مسؤول تجاه الطبيعــة وقانونها كما هو مسؤول أمام نفسه من حيث وعيه لخياره الحر، فإما يكون



مؤخراً لصيرورة التطور ومعيقاً لتفتح الوعي الكوني أو يكون مهياً لظهور الإنسان الجديد المزمع أن يأتي!

سمحت الدراسات التي تمت خلال العقدين الأخيرين، كما والاكتشافات التي جرت في أفريقيا (جنوب أفريقيا، إثيوبيا، كينيا، تنزانيا، المغرب..) وآسيا (الصين، فلسطين، سورية، تركيا..) وأوروبة (فرنسة واليونان) بوضع مخطط واضح نسبياً لتاريخ ظهور وتطور وانتشار الإنسانيات القديمة على الأرض. وينتسب الإنسان إلى الثدييات المصنفة في رتبة الرئيسيات التي ظهرت منذ نحو ٧٠مليون سنة. وقد تمايز فرع البشريات كما يبدو منذ نحو ١٥ إلى ٥ مليون سنة. إلا أن بعض الاكتشافات الحديثة جداً، والتي ما يزال الجدال قائماً حول تفسيرها، ترجع هذا التمايز إلى نحو ٣٠ مليون سنة. والحق إن الأصول البعيدة لتمايز البشريات الأولى ما تزال غامضة، والاكتشافات الحديثة في البيولوجيا الجزيئية والبالونتولوجيا لا تتفق تماماً بعد حول هذه النقطة.

وتدرس البيولوجيا الجزيئية والصبغية المركبات الكيميائية الحيوية (وخاصة بنى البروتينات) لخلايا الحيوانات الحالية، وتقارن الصبغيات فيما بينها. وتسمح الاختلافات أو التشابهات بتحديد القرابات مما يساعد عمل الباليونتولوجي إلى حد كبير. وتثبت الأبحاث وجود تطور حيوي كيميائي وتطور على مستوى الصبغيات بشكل

خاص. والبروتينات هي تجمعات في سلاسل في نظام محدد لجزيئات أساسية هي الحموض الأمينية. وضمن المجموعة نفسها من الحيوانات تظل هذه السلاسل ثابتة بدرجة كبيرة، لكنها تختلف بين أنواع الحيوانات. وقد تبين أن الإنسان وقرد الشيمبانزي قريبان جداً من بعضهما مورثياً، إذ لهما ٩٩٪ من المورثات المشتركة. وقد حاول أحد العلماء طرح توقيت جزيئي يرجع الانفصال بين الإنسانيات والشيمبانزي إلى نحو ٥ مليون سنة. لكن المناهج التي اعتُمدت في ذلك غير كاملة ولاتسمح إلا بتحديد شكل من أشكال التشابه ليس إلا، أما القرابة الحقيقية أو القدم فهما أمران منوطان بالباليونتولوجيا حصراً. ومن جهة أخرى فإن نسبة١٪ فقط من المورثات المختلفة لا يعقل أن تكون سبب ما نلحظه من فارق شاسع بين إمكانيات القرد والإنسان. ويؤكد الباليونتولوجيون أن تحقق هذه النسبة المتقاربة في تفرعات شجرة واحدة يعد مقبولاً وإن كان يصعب تفسيره إحصائياً من وجهة نظر البيولوجيا الجزيئية. ويطرح ذلك من جهة أخرى مسألة إعادة النظر بمفهوم الطفرة التي لا يمكن لها ضمن المعطيات الحالية ظهور الإنسان ابتداء من القردة. أفلا يثبت ذلك أن للتطور منحى داخلياً موازياً للمنحى الخارجي؟

إن الحديث عن منحى داخلي يتطلب منا تحديده بشكل واضح. لكن من منا يستطيع تحديد ما هو غير محدد؟ إن قياس الجانب الجواني لمسألة التطور الشكلي يفترض إخضاع الأبعاد اللانهائية للأبعاد المنتهية. ولعلنا نستطيع التنصل من الوقوع في مطب التحديدية بأن نتمثل البنية النفسية للإنسان كانعكاس لبنية نفسية للكون. بل وأكثر من ذلك، فلعلنا نجد في الكون نفسه انعكاساً لأنماط بدئية كامنة في لا شعور كوني. ومن هنا يمكننا أن نعد هذه النماذج الأصلية – الأعيان الثابتة – هي البعد الحقيقي الجواني لكل تشكل طبيعي! فالأنواع الطبيعية هي أعيان ثابتة كامنة في لا شعور كوني، وإفصاح هذا اللاشعور عن نفسه يتوافق مع صيرورة التطور في حديها النازل (من النموذج البدئي إلى الشكل) والصاعد (من الشكل باتجاه النموذج الأصلي).

الأصول البعيدة

يرجع ظهور الإنسان على الأرض إلى فترة غامضة تثير جدلاً كبيراً بين العلماء، وترجع إلى ما بين ٢٠ و٨ مليون سنة، وهو أمر تؤكده المكتشفات الحديثة في غانا لإنسان توماي الذي يعتبر اليوم أقدم بشري اكتشف حتى الآن. ولعلنا لا نجد في الأنواع المعروفة التي ترجع إلى هذا الماضي السحيق سلفاً

حقيقياً للإنسان. ومع ذلك، لا بد لنا من الاعتراف بأن هذه الفترة تشكل البوتقة التي انطلقت منها شرارة أول كائن بشري، ألا وهو الأوسترالو بيثكوس أما الأنواع التي ترجع إلى هذه الفترة فهي : الدريو بيثكوس Dryo pithèque (قرد شجر البلوط) والأوراثو بيثكوس Ourano pithèque (قرد المطر) السيفا بيثكوس Siva pithèque (قرد الإله شيفا) والراما بيثكوس Rama pithèque (قرد الإله راما). ويقر العلماء اليوم بوجود حلقة ضائعة بين هذه العائلة والبشريات الأولى، حيث بات من الثابت تطورها نحو أشكال مختلفة من القردة.

ويمكننا القول إن العلماء لم ينقبوا عن هذه الحلقة في الموقع الصحيح. فمفهوم التطور ليس مجرد استمرارية حلقات من التغيرات الشكلية، وعلينا في الحقيقة أن نبحث عن الأسباب الجوهرية التي تؤدي إلى ظهور خصائص جديدة وإمكانيات جديدة وأنواع جديدة. ولاشك أن العوامل المادية لمثل هذا التحول هي عوامل لا نهائية تتعلق بالبيئة بكل أبعادها. لكن من المؤكد أيضاً وجود عوامل أخرى تتعلق بالاستعداد الذاتي لدى الإنسان الأول، النموذج البدئي (آدم)، على الظهور والانطلاق في العالم الطبيعي إلى عالم أوسع من العالم المادي. لقد حققت كافة أشكال الحياة هذه الانطلاقة ابتداء من خمائر بدئية كما يعبر تيار دو شاردان. لكننا نعرف أن إمكانيات هذه الانطلاقة كانت محدودة عند الحيوان بأشكال شتى، والحق إن هذه المحدودية تتبدى من جانب آخر كأقصى ما يمكن للنوع إنجازه في ظرفه وبيئته. وضمن هذا الإطار يمكننا ليس فقط فهم ظهور البشريات الأولى، بل وتتالي ظهور أنواع الإنسانيات بمقدرات أكثر فأكثر تفتحاً.

إن ظهور أولى الإمكانيات النفسية- العقلية المتطورة عند البشريات الأولى كان السبب الحقيقي لتفردها ولتمايزها. ولست أريد بذلك أبداً أن هذه الطاقة المتفتحة كانت السبب المباشر في ولادة الكائن الإنساني، لكنني لا أستطيع القبول أيضاً بأن الشكل الفيزيولوجي والتطور المعلوماتي المورثي وحتى الطفرة المورثية هي أسباب ظهور هذا الكائن بمقدراته النفسية والعقلية. بل يجدر بنا فهم التطور كسياق كلي للباطن وللظاهر على حد سواء، للمعنى والشكل، للروح وللمادة. فإذا كانت الطبيعة قد طورت الخلية إلى كائنات معقدة تتميز بالمهارات المتناغمة مع الطبيعة، فهذا يعني أنها كانت قد وصلت إلى مرحلة حاسمة تمكنها من إبراز قدرات معنوية كامنة من خلال قدرات شكلية ظاهرة. وبعبارة أخرى يمكننا القول

إن التطـور الطبيعـي بلـغ حـداً يمكنه من استيعاب تفتـح نماذج كونية جديدة كانت ما تزال هاجعة في اللاشعور الكوني!

لابد لي من الإقـرار هنا بوجود عوالم في الطبيعـة تـوازي العالم المـادي وتتغلغل فيه، وهي العوالم التي يمكننا دعوتها بعوالم النفس والعقـل. وإن كنت لسـت في معرض برهان وجود عالم عقلـي أو نفسي تنسجه عقول أو نفوسـ شتى، لكن كيف يتسنى لنا فهم ظهور الطاقـة النفسية والعقليـة في الإنسان دون أن يكـون ثمة في الأصل منجـم خام لمواد أو بالأصح لقـوى هذه الطاقـات ؟ إن التطور الإنساني من هذا المنظور يعد تعبيراً ذا حدين عن تفتح النمـاذج الثابتة الأصيلة في الكون. ففـي الإنسـان تجسدت القـدرة على طرح إشكالية المعرفة والشعـور. وفيه أيضاً تبلور مفهوم الحرية والتمييز. كذا نستطيع التأكيد على أن ظهـور الإنسانيات الأولى كان نتيجة تناغم كـوني أفصح فيه الكـون عن تجربته الكبرى، المغامرة الأزلية، بتجسّد فريد !

الأوسترالـو بيثكوس Australo pithèque

الأوسترالو بيثكوس أولى الإنسانيات باتفاق العلمـاء كافة، ومع أن هـذا البشري الأول لم يكن قد اتصف بعد بميزات إنسانية واضحة، لكنه لم يكن قرداً بالتأكيد. ويمكننا القول إنه كان أول كائن تتفتح فيه إمكانيات فيزيولوجية ونفسية واعدة. وقد انتشر الأوسترالو بيثكوس (قـرد الجنوب) شرق أفريقيا (إثيوبيا، كينيا، تنزانيـا) وجنوب أفريقيا بين نحو ٦,٥ و١م.ع. وقـد تبين أن هناك عدة أنواع منه خاصة بعد اكتشافات موقـع آفار Afar الثورية في إثيوبيا خلال العقديـن الماضيين في سويات ترجـع إلى ٣ م.ع وأكثر. ونميـز حالياً أربعة أنواع كـبرى منه : أفرنسيسـ Afarensis وأفريكانوسـ Africanus وروبوستوسـ Robustus وبواسي Boiesi.

ترجـع متحجـرات أوسترالوبيثكوسـ أفرنسيس الذي اكتشف عام ١٩٧٦إلى ما بين ٢,٣و ٣,٨م.ع (لايتولي Laetoli في تنزانيا وهـدر Hadar في إثيوبيا). وأهـم وأشهر متحجراته المكتشفة هي لوسي Lucy، وهي متحجرة شبه كاملة. ويتراوح طول هذا النوع بـين ١ و١,١٠م، وهـو منتصب مثـل كافة أنواع الأوسترالـو بيثكوس الأخرى، ويلاحظ أن إبهـام القدم موازية لبقية الأصابع عنده. وتتميز أنواع الأوسترالو بيثكوس بسعة دماغية تقـارب الـ٥٠٠سـم^3 وسطياً. وهـذه السعة أضعف عند أفريكانوس الذي عرف منذ نحو ٣م.ع في جنوب أفريقيا وشرقها (إذ تصل إلى نحـو ٤٤٠سم^3) في حـين أن طوله يصل إلى ١٢٠ سـم^3 تقريباً، بينما يتراوح وزنه بين ٢٠

و٣٠كلغ. أما روبوستوس وبواسي فمتوسط سعة دماغيهما ٥٠٠سم^3 وكانا نباتيين أكثر من أفريكانوس. وفي كل الأحوال تدلنا هذه الأنواع الأربعة على تلمسات طبيعية واضحة باتجاه الأنسنة وإن كان العلماء غير قادرين حتى الآن على وضع خارطة واضحة لارتباط أفراد هذه العائلة ببعضهم.

وقد وصلنا عدد قليل من أدوات الأوسترالو بيثكوس، وهي من الحصى المشغولة ونصال الكوارتز إضافة إلى أدوات عظمية وسنية وقرنية. أما معطيات البيئة الحيوانية والنباتية في ذلك الوقت فقد كشفت عن تغير من وسط أكثر رطوبة إلى وسط أقل رطوبة بين ٤,٢م.ع. ومن الثابت تقريباً أن البيئة كانت مؤلفة منذ نحو ٤م.ع من غابات وسهوب كثيفة من السافانا. ومنذ نحو ٢,٥م.ع حصل جفاف فجائي، وفي هذا الوقت بالذات ظهر الهومو هابيليس على المسرح.

النوع الإنساني: هومو Homo

يعترف معظم علماء الأنثروبولوجيا القديمة بنوع الهومو هابيليس Habilis الذي يثير جدلاً كبيراً مع ذلك حول ظهوره وعمره. ونجده في كينيا وإثيوبيا وتنزانيا كما اكتشف في أفريقيا الجنوبية عام ١٩٧٦. ويرجع عمره تقريباً إلى ٢م.ع، لكن من الممكن أنه كان موجوداً في أفريقيا الشرقية منذ نحو ٤م.ع (كينيا) ومنذ نحو ٣م.ع في إثيوبيا. وتتراوح سعة جمجمته بين ٥٠٠ و٨٠٠سم^3. وقد تطورت معه الصناعة الحجرية، وتنسب له أولى المعسكرات البدائية والأدوات الصوانية التي اكتشفت في أولدفاي Oldwai. ومن المرجح ظهور بدايات التنظيم الاجتماعي لديه مما وفر له إمكانية الشعور بالاستقرار النسبي..

ولاشك أن هذا المناخ الحميم والأكثر استقراراً قاد إلى ظهور الهومو إركتوس Homo erectus. وقد اكتشف أولاً في جاوة (pithècanthrope) في نهاية القرن الماضي. ثم في الصين (Sinanthrope) بين عامي ١٩٢١م و١٩٣٧. لكن التنقيبات التالية كشفت عنه في أفريقيا الشمالية (Atlanthrope) ثم في تنزانيا وتشاد وكينيا وإثيوبيا، ومن ثم في أوروبة. ومن الثابت أن هذا الإنسان انتشر في العالم القديم كله. وترجع آثار هذا الإنسان في الصين إلى ١,٧م.ع، بينما يقترح عمر ١,٦ للبقايا المتحجرة التي وجدت شرق بحيرة تركانا Turkana في كينيا، الأمر الذي يبقى المجال مفتوحاً حول أصوله مع إمكانية طرح فرضية هامة في ظهوره في أكثر من موقع بشكل متزامن تقريباً. وتتراوح سعة جمجمته بين ٧٨٠ و١٢٢٥سم^3. ونلاحظ أن الجمجمة طويلة

وخفيضــة وأن عظامهــا الدماغيــة ثخينة. ونلاحــظ أيضاً بدايات ظهور للذقن في حين أن أسنانه تطابق أسناننا الحالية إنما بنسبة حجم أكبر قليلاً. ولعل ظهور الذقن يشير إلى نضجه النفســي، حيث تعبر الذقن في الوجه الإنساني عن العواطف والمشاعر.

وقد أصبــح تنظيم المعسكــرات واضحاً جداً عنــد الهومو إركتوســ حيث نجد فيها مثلاً أماكن مخصصة للحامة وأخرى للنحت الحجري. ويبدو أن الهومو إركتوس عاش في مواقــع بيئية متنوعــة، من المداريــة المغلقة والرطبــة في جاوة إلى القريبــة من السهوب المعتدلة في الصين (زوكوديان) وفي مناخ أكثر جفافاً في المغرب وإثيوبيا. وكان هذا الإنسان أول مــن استعمل المواقــد في معسكراته منذ نحــو ٨٠٠٠٠٠ سنــة. ومع الهومــو إركتوس ظهر نمط جديــد من التقصيــب الحجري يدعــى باللوفالــوازي (Levallois) وفيــه لا يكتفــي الناحت بنحت الحجــر، بل يفكر مسبقــاً بالشكل الــذي سيعطيه له وبطريقة استخدامــه. ولعل الجماجــم المكسرة عمداً التي وجــدت في جاوة والصين وتنزانيا تشير إلى أولى (الطقوســ) التي مارسها الإنسان. وتعــد كافة هــذه المعاملات الجديــدة التي دخلت في الصــيرورة التطورية نتاجاً طبيعياً لتطور نفســي طويل عمل اللاشعور الجمعي للإنسانية على تعميمه على مدى مئات آلاف السنــين، هذا دون أن نشير إلى أهمية العامل المورثي والعامل البيئي، خاصة أنه ليس لدينا أي دليــل مباشر على تحــدر الهومو إركتوس مــن سلفه الهومو هابيليســ. ونصادف هذه المسألة عينها عندمــا نعرض لظهور الهومو سابيان الــذي يرجح أنه تحــدّر عن الهومو إركتوســ. فمع كل مرحلة جديدة من مراحل ظهور هذه الإنسانيات نجد فجوة لا نستطيع ردمهــا فيما يخص إنكفاء نــوع وانتشار نوع جديد. ومــع أن هذه العمليــة كانت تتطلب عشــرات آلاف السنــين أو أكــثر في العصور القديمــة، فإننا نجد أن نوعــين من الهومو سابيان قد عاشا معاً لفترة زمنية طويلة، دون أن نستطيع تحديــد الشكل الانتقالي بينهما. وفي الحقيقة، فإننا لا نستطيع تقديم تفسير نهائــي لهذه المراحــل الانتقاليــة الحاسمة دون أن نأخــذ بعين الاعتبار كما يبدو تدخل معامــلات جديــدة هي في الأصــل تبلورات لنماذج ثابتة أكــثر فأكثر تفتحاً ومقدرة على استيعاب الخبرة الإنسانية الأسبق.

الهومو سابيان Homo Sapien

عرف الهومو سابيان بشكلين: هومو سابيان نياندرتالانسيســ Neanderthalensis وهومــو سابيان سابيــان Homo Sapien Sapien.

وقد اكتشف علماء الآثار إنسان نياندرتال في غرب أوروبة أولاً، حيث عاش بين نحو عامي ٨٠٠٠٠ و٣٥٠٠٠ق.م. واقترحت فرضية قديمة هجرته إلى الشرق الأدنى حيث اكتشفت آثاره في فلسطين (الطابون) والعراق (شانيدار). لكن الاكتشافات الحديثة وخاصة في فلسطين وسورية ترجح أن هذا الإنسان ظهر في المنطقة بشكل مستقل. بل إن التنقيبات الجارية في بعض المواقع في سورية (وأهمها عفرين) تثبت على ما يبدو أنه انتقل على العكس من الشرق الأدنى إلى أوروبة. ويمكن أن تصل السعة الدماغية عند إنسان نياندرتال إلى ١٧٠٠ سم^3. وهو أول إنسان يدفن موتاه (لافراسي La Ferrassie) في فرنسة، وشانيدار في العراق). وقد عاش هذا الإنسان في مناخ بارد، واجتاح الجليد جزءاً كبيراً من أوروبة في عصره. وتميزت بيئته الحيوانية بحيوانات قادرة على احتمال البرد مثل الدب والرنة والعنز البري وظبي الجبل. وانطفأ هذا الإنسان منذ نحو ٣٥٠٠٠ سنة لأسباب ما تزال مجهولة. وتثبت الاكتشافات الحديثة أن النياندرتاليين عاصروا خلفهم الإنسان العاقل وأنه أمكن حصول ما يمكن أن ندعوه بالاختلاط بين الطرفين كما تؤكد ذلك إحدى الجماجم في السخول في فلسطين.

وبشكل معاصر لإنسان نياندرتال تقريباً ظهر في منطقة الشرق الأدنى نمط حديث من الإنسانيات منذ ما يقارب ٥٠٠٠٠ سنة (الأبحاث الحديثة ترجح تاريخاً أبعد لإنساني نياندرتال وكرومانيون). ونعرف هذا الإنسان اليوم بشكل كامل في كفزة والسخول في فلسطين، وهو يطابق في العديد من صفاته الإنسان الحالي. إنه إنسان كرومانيون، هومو سابيان سابيان. وتتراوح سعته الدماغية بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠سم^3 ونلاحظ ظهور الذقن بشكل كامل لديه. ويمكن اليوم اعتبار إنسان السخول وكفزة السلفين المباشرين لإنسان كرومانيون في أوروبة. وتثبت الدراسات الحديثة هجرة الهومو سابيان سابيان من الشرق الأدنى إلى أوروبة من خلال عدة دراسات على مستوى الصبغيات كما والتنقيب الأثري. غير أن الانتقال من الهومو إركتوس إلى النياندرتال أو إلى الهومو سابيان سابيان ما يزال غير واضح. ومع ذلك فإن منطقة الشرق الأدنى وآسيا بعامة مرشحة بامتياز لاحتضان هذا التحول.

كان إنسان كرومانيون، أو الهوموسابيان سابيان، أول من اجتاز مضيق بيرنج بين آسيا وأمريكا ليعبر إلى القارة الجديدة ويعمرها منذ نحو ٣٠٠٠٠ سنة. وهو سلف الإنسان الذي يعمر العالم اليوم. وقد تأقلم مع كافة

أحوال المنـاخ في كافة أصقـاع العالم، وتميز بتنوعه الفيزيائي والثقافي، كما وبنمو وبتطور مقدراتـه النفسية والعقلية. وهو ينتشر اليوم بأعـداد هائلـة على سطح الكـرة الأرضية، وكان أول الإنسانيات التي تعد نفسها متميزة عن الطبيعة!

العصور الحجرية:

تقسم العصور الحجريـة، وهي العصور التي اعتَمَدت فيها أنـواع الإنسانيات بشكل رئيسي علـى الأدوات الحجرية، إلى العصر الحجـري القـديم (الباليوليتـي) والعصر الحجـري الأوسـط (الميزوليتـي) والعصر الحجـري الحديـث (النيوليتـي). ويقسـم الباليوليتـي إلى أدنى وأوسط وأعلى. وخلال مراحل الباليوليتي الطويلة تطورت الصناعة الحجرية من أشكال خشنة إلى أشكال دقيقة وفعالة وظهرت الصناعات العظمية الغزيرة حيـث صنعت من عظـام الحيوانات الرماح القصـيرة والخطافـات والإبـرة ذات العين والمخارز. ومع بداية الباليوليتي الأعلى تنوعت الثقافات إلى حـد كبير في أنحاء العالم كافة. لكننا لا نستطيـع إلا وأن ندهش أمام توازي هذه الثقافات خلال مراحل معينة، مما يشير إلى تطور أداتي يرافقه تطور تصوري إدراكي متوازٍ لدى الشعوب المختلفة.

أمـا الميزوليتي فيتميـز بالثقافات التي اعتمدت نظاماً اقتصادياً يرتكز على الإنتاج، أي في بدايـة مرحلـة التدجـين والزراعة. ويرجـع ظهور الثقافات الميزوليتية في الشرق الأدنـى إلى ١٠٠٠٠ سنـة ق م. وتبين أحدث البقايا المكتشفة لإنسـان هذا العصر توافقاً تطوريـاً كبيراً باتجاه الإنسـان الحالي. وقد استخـدم هذا الإنسان أدوات حجرية صغيرة الحجـم غالباً. ومع اعتمـاده في غذائه على الصيدين البري والبحـري فقد اهتم بشكل كبـير بالتقاط الحلزونـات والأصداف. وقد انتشرت ثقافات الميزوليتي بسرعة عبر أنحاء العالم لتؤكد مجدداً تـوازي التطور الإنساني، ولتثبت أكثر فأكثر فرضية وجود ذاكرة جمعية تغذي الجماعات والشعوب بالمعارف المكتسبة في مواقـع مختلفة على كوكب الأرض. ولعلنا نلمح هـذا التعميم بأكثر ما يكـون وضوحاً بالإشعـاع النيوليتي الذي عم الكرة الأرضية انطلاقاً من بوتقة الشرق الأدنى خلال آلاف قليلة من السنين.

والنيوليتـي هو العصر الحجري الحديث الممتد بين الميزوليتـي وعصور المعادن. وهو يشير إلى عصر الحجـر المصقول. لكن هذا التعريف لم يعد كافياً لاستيعاب هذه المرحلة، ويقصد بالتسمية اليـوم العصر الذي انتقل فيـه الإنسان من الصيد إلى الإنتاج الزراعي والرعـوي. وقـد ظهـرت أولى بـوادر هذا

التحــول في الشرق الأدنى. وأدى تطور تأريخ البقايا العضوية التي ترجع إلى نحو ١٠٠٠٠ سنــة (الكربــون ١٤، التأريــخ بالخشب) إلى تجديد معارفنا حول هذا التحول إضافة إلى الاكتشافات الهامة التي تمت خلال العقدين الماضيين كمــا في شاتال حويوك (تركيا) وفي المريبط (سورية). وقد طرحت عدة فرضيات لتفسير صــيرورة النولتة في الشــرق الأدنى. لكنها كلها لا تقدم تفسيراً وافياً لهذا الانتقال من شكل حياة دام مئات آلاف السنين إلى شكل جديد تماماً خلال فترة قصيرة جداً لا تتعدى الألفي سنة. والحق إن الاستعداد النفسي عند الإنسان كان قد بلغ مرحلة من النضج مكنته من تحقيق هذه القفزة. هذا إضافة إلى تمرس الإنسان القديم بالخبرة الطبيعية، أي بقدرته علــى الملاحظة والتجريــب. إن خبرة طويلة مكتنــزة في لا شعوره بــات بإمكانها في ذلك الحــين أن تبرز كمعامل داخلــي موافق لعدة معاملات خارجية، كالبيئة والنمو الديمغرافي والمهــارات اليدوية. ولنــا دلالة على ذلك في استمــرار حصول هذا التحــول في أكثر من مكان ومــن قارة بشــكل منفصــل ومتميز. ويطــرح العلماء فرضية وجود أكثر من مركز نولتة في الشرق الأدنى مما يدعم فكرتنا حول الاستعــداد النفسي العــام كمحرض أساسي للتغير الثقــافي. ويبين كوفــان J. Cauvin أن النولتــة هــي صيرورة ثقافيــة اعتمدتها الشعــوب بشــكل واع ومتــأن ضمن ظروف تحضر واستقرار نلاحظها للمرة الأولى عند المجموعــات النطوفية التي ســادت ثقافتها خلال الألــف التاســع ق.م مناطق فلسطين والشرق الأدنى عمومــاً. ويمكن تفسير إرادة التغيير هذه بتأقلم الإنسان النفسي مع مجتمع أكثر تعقيداً وعدداً. وضمن هذا المعنى يمكن الحديــث عن نضج نفساني جماعي يبدو أنه لم يبلغ هذه الذروة قبل ذلك.

وبعد ظهور القريــة ذات المنزل الدائري (الألف التاسع ق.م) نجد القرية ذات البيوت المربعــة (الألف الثامن) التــي تمثل بدايات المــدن مثــل أري (الألف السابــع) ثم شاتال حويوك (الألف السادس). وقد ظهر التدجين في الألــف الثامن إثر تقنية في الصيد ربطت بين الإنســان والكلب. وسرعان ما تم تدجين الماعــز والخــروف والخنزيــر. وظهرت في الألف الثامن أيضاً أولى حبوب القمح وبعض الحبــوب الأخرى التي زرعــت. وتدعى هذه المرحلــة أيضاً بقبيل النيوليتية، أو النيوليتية ما قبل الفخاريــة، إذ إن الفخاريات لم تظهر إلا في الألف السابع ق.م. وخلال ثلاثة آلاف سنة تالية شهد الشرق الأدنى ازدهار حضارة رائعــة. ومن أهم المــدن إضافــة إلى شاتال حويــوك بمستواهــا التقني الرفيــع وإشعاع

تجارتهـا وتعقيد ديانتها نذكر مدناً أصبحت شهـيرة مثل جرمـو وأري وحسونـة وحلف والعبيـد. ونجد في هذه المواقـع الإبداعات النيوليتيـة المميزة لهذا العصـر مثل النسيج وصقل الصخـور والعجلة ومختلـف أشكال الأفران، ثم بدايـات التعدين فيما بعد. لقد اكتشف الإنسان النيوليتي الزراعة والتدجين وبنى البيوت ودفن موتاه وعبد الآلهة، وعرف الآنية الفخارية وآلات الحياكة البدائية والإبرة والصابون والمحراث، وطـور فنوناً وطقوساً ولغـات متميزة. ولاشك أن صـيرورة النولتة انعكست عليه جسديـاً ونفسياً وعقلياً. فقد اكتمل شكله الفيزيولوجي الحالي وأصبح أكثر مرونة وامشتاقاً مـن أسلافه. كما تأقلم مع حياة اجتماعية غنية جداً. وتطورت حاجاته النفسية إلى حـد كبير، وبات تعبيره عن رؤاه الداخليـة أكثر صراحة ونضجـاً. ولاشك أن الأساطير القديمة خلال هذه المرحلة بالذات. ومع نهاية العصر النيوليتي في الشرق الأدنى، نحو عام ٣٣٠٠ ق.م، اكتشف الإنسان الكتابة والعد، وكانت تلك بداية التاريخ!

الارتقاء النفسي- العقلي

إذا كان ارتقـاء الكائـن الإنساني قد مرَّ عبر مراحلـه المختلفة بعـدة أنماط تطورية ميزت تحصيلـه لقدرات متزايدة على الفهم والتعبير، فإن هذا الارتقاء بلغ مرحلة حاسمة عندما تعلـم الإنسان الكتابـة والتدوين، إذ اتخذت أشـكال التعبير كافة بعـداً جديداً. فالرقص والغناء والموسيقى والرسم والنحت والشعر والعبادة والأسطورة والطقوس حُمِّلت كلها بقـدرة تعبيرية إضافيـة. والحقيقة إن اخـتراع الكتابة لم يكن مجرد حدث في مسيرة الإنسـان التطورية. وإذا جـاز لنا القول فإن الكتابـة لم تكن اختراعاً بـل تحقيقاً لنموذج بدئـي أصيل في التعبير انتقـل معه الإنسان من كونه مستبطناً للمعنى إلى كونه كاشفاً له. ومع عبوره هذه العتبة كان الإنسان قد اكتمل كبنيان نفسي.

إن اللقاء المذهل لحضارات اليونان وفارس والرافدين والشام ومصـر في الشرق الأدنى شـكل ذروة توهـج هذا الاستعـداد النفسي الجماعـي. والحق إن هذا المثـال يعد دليلاً في الوقت نفسه علـى نضج نفسانية أممية. فالقرون القليلة السابقة للميلاد كانت مفعمة بـروح ديناميكية حرضـت نفسانية الشعوب على الإبداع والتجديد، ليس فقط في الشرق الأدنى، بل في الهند والشرق الأقصى وأوروبة وأفريقية وأمريكا! ومنذ ذلك الوقت تطورت اللغة فأصبحـت أغنى وأمـتن. وبذلك فإن الفكـر الذي تمثـل بأساطير وفنـون وعلوم الشعوب القديمـة كان تحقيقاً ومداً للطاقة النفسيـة. ولعل هذه المرحلة كانت الأولى من

نوعها التي ظهرت فيها بشكل جلي إمكانيات النفس على تجاوز ذاتها إلى تعبير عقلي بالدرجة الأولى.

قد يبدو الرباط الذي شددنا النفس إلى العقل به مقحم ولا ضرورة له في سياق التطور الإنساني. لكننا في الحقيقة لا نستطيع إلا أن نرجع العقل والنفس إلى بذرة واحدة، إلى طاقة بدئية تمايزت شيئاً فشيئاً إلى وجهين لحقيقة واحدة. فالصيرورة النفسية كانت الرحم الذي احتضن العقل حتى ساعة ولادته. ويمكننا أن نلحظ هذا الفكر النفساني منذ الهومو إركتوس على الأقل. فمجرد تعلم الإنسان لنحت الأداة الصوانية جعله يرتقي إلى مستوى أعلى من رد الفعل الغريزي غير المدرك. إن العصور الطويلة التي أمضاها الإنسان في نحت الأداة الصوانية تشير دون شك إلى ولادة بطيئة لقوى النفس والعقل. ويمكننا تصور هذه القوى بشكل متداخل وهيولاني في الإنسان القديم تمايزت ببطء شديد وعلى مراحل موافقة لتطوره الفيزيولوجي كما ولتفتح إمكانياته الداخلية.

كذا فإننا لا نستطيع في الحقيقة تطبيق نظرية توينبي Toynbe على هذه المراحل الموغلة في القدم. فالتطور الثقافي، الذي يعكس تطوراً نفسياً وعقلياً، لم يكن ليتم عبر مواجهة التحديات وإيجاد الحلول لها. ومع ذلك نقبل أن البيئة الخارجية ساهمت إلى حد بعيد في تطور العقل والنفس. فقد تغذى هذا الكيان النفسي على مدى مئات آلاف السنين بمشاهد كثيرة كان لها انعكاس مباشر أو غير مباشر على طبيعته الداخلية، كالأمطار والصواعق والخسوف والكسوف والنجوم والنيران والثلوج والبحار والأنهار والحيوانات، والأهم من ذلك كله دورات الحياة المتكررة باستمرار، ولادة الشمس وانطفاؤها، وولادة الإنسان وموته.. لم يكن الإنسان القديم ليشعر تجاه هذه الظاهرات بالتحدي، بل كان يستمد منها انطباعات نفسية ومشاعر شتى. ولانستطيع هنا التمييز بين الفكر والشعور.. فالشعور والفكر كانا واحداً.. ولعل إنسان نياندرتال شهد أولى لحظات تمايز العقل عن النفس عندما وقف وقفته التاريخية أمام الموت. وكان إنسان كرومانيون على الأرجح أول من استطاع إدراك نفسه في الطبيعة ككائن قادر على الشعور بها، وفي تلك اللحظة بدأ العقل ينمو في اتجاهه الخاص.

إن المشاعر التي بدأ الإنسان القديم يأنسها، وبخاصة مع إنسان نياندرتال ثم إنسان كرومانيون، غدت مصدراً ملهماً لنفسانية اكتملت صورها الطبيعية والرمزية وبدأت تستلهم معانيها. ويرجح أن بدايات

النطـق عند الإنسان ترجـع إلى هذه الفترة. ويمكننا القول إن إنسان نياندرتال شهد أهم لحظات البزوغ العقلي هذه. لكن تمايز العقل هـذا كان داعماً للنفس إلى حد كبير. ولعل إنسـان نياندرتال كان مهياً في تلك اللحظات لاستذكار أحلامه ! لكـن لا شك بالمقابل أن إنسان كرومانيون ترك لنا تعبيراً صريحاً عن هذه الأحلام في رسماته الرائعة على جدران المغائر!!

التطور المعرفي:

تدلنا دراسة تاريخ الإنسان إلى أن صيرورة تطورية كانت تقود الإمكانيات البشرية باتجاه معرفة عقليـة متنامية. وتدلنا هذه الدراسة أيضاً أن هذه الصيرورة كانت وماتزال صيروة دوريـة في جوهرهـا، أي أنهـا تحقق تفتح الطاقـات البشريـة من خـلال أدوار زمنية تتصف بأحوال نفسية وعقلية خاصة. وهكذا فـإن التطـور الإنساني يبلغ مـداه الأقصى خـلال دور ما في مجال معـين، فيكون لابد مـن اكتمال الدور عندها وتحقيق التطور في باقي المجالات قبل أن تبدأ مرحلة جديدة من التطـور في هذا المجال بالـذات. ولكأن هذه الأدوار تفصـح في الحقيقة عن إيقاع التفتح الداخلي للنماذج الثابتة في الإنسان. ويمكننا الاستطـراد في هذا الطرح فنقول إن الأدوار يمكن أن تكون جزئية تتم خلال أزمنة قصيرة في مناطـق محدودة وخلال ظـرف معين، أو كلية أي تحكم الصـيرورة التطورية الشاملة على الكرة الأرضية أو في مناطق واسعة منها وخـلال أزمنة طويلة نسبيـاً. ويكون التطور خلال دور جزئي غير ملموس ويظهر عموماً من خلال بعض الإنجازات. لكن توالي الأدوار الجزئية واكتمـال الدور الكلـي المشكل لها يظهر تطوراً جلياً ليس من خلال الإنجازات المعرفيـة فحسب، بل ومن خـلال مقدرات الإنسان النفسية والعقلية.

وضمن هذا المنظـور فإن التطور الثقافي يخضع لإيقـاع متضمن في القانون الطبيعي لوجودنا، التجربـة الكونية الأزلية. ولايخرج عن هـذا النطاق إيقـاع التحديات والحلول الذي تحـدث عنـه توينبي. لكـن توينبي لم يتنبـه للصـيرورة الدورية، واعتـبر أن عدم إيجـاد شعب أي حل لتحد واجهه يعد ضعفاً وهزيمـة. لكننا نجد أمثلـة كثيرة في التاريخ كان لا بـد فيها من توقف إنجاز معرفي عند حدود معينة حتى يكتمل الدور التطوري الذي تم فيـه. ومن جهة أخرى، ألا يجب أن ندخل معامل التطـور النفسي والعقلي للإنسان في معادلـة التحدي والحل، هـذا المعامل الذي يشتمل في جوهره على ديناميكية متأصلة في النماذج البدئية للإفصاح عن نفسها؟! وبعد، ألا يحـق لنا أن نطرح التحدي الأكبر، مشكلة

المعرفــة، كمرحلة تطورية في صيرورة التطور الكلية ؟!

إن دراسة تاريخ المعرفة الإنسانية تقودنا إلى الغوص في مسألة المعرفة ذاتها. لكننا لن نسترسل في بحث طبيعة المعرفة، بل سنتوقف فقط عنـــد نقطة أساسيـــة. فالمعرفة مفهوم مرن جـــداً يتخذ شكلانية معينة خلال عصر معين تتناسب ومقدرات الإنسان في حينها كما والظرف العام السائد. وخلال دور معين تلبس المعرفة ثـــوب الفهم الذي يناســـب «الشكل» خـــلال هذا الـــدور؛ لكن هـــذا الثوب يخفي الحقيقة الأعمق للمعرفة، وهي حقيقة التاريخ نفسه، ألا وهي التطور والتفتح اللامحدودين. فجوهر كل إنجاز معرفي يحققه الإنسان إنما هـــو حالة الارتقاء الموازيـــة التي يبلغها. كذا يبنـــي كل عصر الشكل المعرفي الخاص به، أو إذا شئنـــا «أسطورته المعرفية». أما الأسطورة المعرفية الحقيقية فـــلا تنفك تتجدد في كل دور، وتنمـــو وتزدهر مـــع الأجيال، طالما أنها ليست مجرد الأفكار، بل و«الحالات» النفسية والعقلية التي أبدعتها.

ولعلنا نستطيع من هنا استخلاص مقياس عام للتطور الحضاري. فكلما كانت إنجازات الحضارات المعرفية متوافقة مع «أسطورتها المعرفيـــة الحقيقيـــة». كان مستـــوى هـــذه الحضارات أرفع وأعلى. ولتوضيح ذلك نقول إن الإنجـــازات بحـــد ذاتها لا تشـــكل معياراً حقيقيـــاً لقياس نمو وتفتح حضـــارة ما، بل يجب علينا أن نسبر التطور النفسي- العقلي الذي ترافق وهذه الإنجازات وأن نقدر مدى توازن هـــذا التطـــور الداخلي مـــع الإنجاز الظاهري. وتلكم طريقة من جهة أخرى لفهم إنجاز حضاري ما. فخلال العصور القديمة كانـــت النفس البشريـــة هي قائـــدة التطور المعرفي الإنساني. في حين كان العقل ما يزال في طور النمو. ولهذا كانت الإنجازات الكبرى ترتدي غالبـــاً زي الأسطـــورة الموافق لرموز النفس وللحدس العقلي الذي كان غير مقيد بعد بإشراطـــات خارجية. وخلال ذلك الدور الطويل الذي مهد لنمو المنطق العقلي بشكل متوازن مع مقـــدرات النفس البشرية، والذي شـــارف علـــى الانتهاء كما يبـــدو مع اختراع الأبجدية، حقـــق الإنسان إنجازات رائعة بما هي إبداعات تجريبية وتراكمية على مستوى الظاهر، وحدسية على مستوى الباطن. وهذا التوازن بين القيمة النفسية- العقلية والشكل الخارجي للإنجاز هو الذي كان ومازال يعطي الأسطورة المعرفية القديمة خلودها وغناها.

جلاء النماذج البدئية:

لعل إحدى أهم المراحل التطورية النفسية التي مر بهـــا الإنسان هي تلـــك الفترة التي صاغ خلالها أساطـــيره. ولا حاجة بنا للقول

إن الأسطورة لم تكــن مجرد تأليف أدبي كتب بهدف التسليــة أو إقامة الشعائــر الدينية. وتفيدنــا دراســة النصوصــ القديمــة أن الأسطورة كانت تتعلق بجوهرها ببعد معرفي لــدى الإنسان القــديم. ففيهــا ضمن كافة معارفــه الرمزية، ومنها كان يشتق مبادئه في التنجيم والطب والزراعة، وبها كان يستشعر ذلــك الجانب الداخلي فيه الــذي كان ينمو وينضــج. لكن الأسطــورة في جوهرها كانت حلماً بشرياً جمعيــاً، وتوقاً للطاقة الإنسانية غير المتفتحة بعــد. بلى، كان الإنسان القديم يشعر أنه يخبئ، في أعماقه طاقات عظيمة، وهذه الطاقــات كان يحدس أنها متصلة مع الكون. وكانــت اتصاليتها هذه ظاهرة له في كل شــيء. ومن هنــا فإن الوثــن بالنسبة له كان أعظــم من مجرد حجــر. لكننا نستطيع أن نستشــف عمقا أبعد لهــذا التوازي لا بل التواجد مــع العالم. فلا ننســين أن الإنسان القديم ظل لفــترة طويلة يتعامل مع الطبيعة عن قرب شديــد. وهكذا انطبعت في ذاكرته وفي لا شعــوره ذكرياته معها. ولاشك أن أكثر هذه الصور تكراراً وأهمية بالنسبة له اتخذت معنى أعمــق في نفسانيته من مجرد طبيعتها البسيطــة. ولاشك أن هــذه المعاني توافقت مــع تفتح النماذج البدئية الأولى في لا شعوره الجمعي. ومن الصعوبة بمكان تحديد مرحلة جلاء هــذه الأعيان الثابتــة، لكننا نرجح أن إنسان نياندرتــال كان حالماً من طراز فريد. حالم رأى تشكل النماذج البدئية الأولى! لا بل إننــا لا نغالي إذا قلنا إن هذه الأعيان الثابتة كانــت معاملاً حاسمــاً في نطقه وتعبيره عن شعوره. وعند هذه النقطة تتسنم النفس ذروة مشاركتها في التطور الإنساني!

إن هــذه العلاقــة بين النفســ الخافية والنفســ الواعية هي أساســ التطور الأولي لبــذر العقــل- النفس قبل تمايزهــا. ولعلنا نلمس في التطــور المتسارع لقــدرات إنسان كرومانيون هذا التطــور المتوازي للأسطورة الداخلية والأسطــورة الخارجية. ففي حين كانت الأسطورة الخارجية تبنى على أحداث أو وقائع يمكن أن تكون قد وقعت جزئياً، فإن الأسطــورة الداخلية كانت ترفدها باستمرار بأعيانهــا الثابتــة. وهكــذا ولــدت أساطير الشعــوب التي تتحدث عن خــبرات متماثلة بلغــات مختلفة: ولادة العالم وأصله، الطوفان، البطل الإلهي، البعث والقيامة،..

كذا كانت الأسطــورة الداخلية المحرض الرئيسي للأسطورة المعلنة، وعندما تراجعت الأسطورة الداخلية تراجعت الأساطير عموماً وتحولت إلى فلسفات!

ولعل أهــم الأعيان الثابتــة التي بلورتها النفس الوليــدة كانت علــى الأرجح الرموز

الماثلة في العالم الخارجي بشكل دائم، ومنها الشمس والقمر، والأم والأب، ومنهما القرين والقرينة، وتضخيمات للحيوانات الأساطيرية التي كانت تمثل ثنائية الوحشية البرية والحرية السماوية، أي تلك الحيوانات المجنحة كالحصان الطائر أو التنين أو العنقاء، ثم فيما بعد الحيوان- الإنسان الطائر كما في التمثيلات الآشورية الفريدة. ولعل الشجرة والجبل والنهر والماء والدم والنار كانت من أهم هذه الأعيان الثابتة. ويمكننا القول إن الأشكال الهندسية ظهرت فيما بعد كالدائرة أو الثلث أو المربع. وربما كان اللون الأحمر أهم الألوان التي حلم بها الإنسان القديم، بما هو لون النور والنار، الشمس والدم، إضافة إلى الأزرق لون السماء والبحر، والأخضر، لون البيئة الأكثر دفئاً التي لجأ إليها الإنسان، والأسود لون الليل والكهوف المظلمة. ونعتقد أن الكهف كان من أهم الأعيان الثابتة التي ترسخت في اللاشعور الإنساني كرمز لهذا اللاشعور نفسه. إن هذه الرموز كانت دون شك محرضاً رئيسياً للتفتح الروحي للإنسان.

الارتقاء الروحي

إن تكوين الكائن الإنساني النفسي والعقلي يشير إلى طاقات كامنة فيه لما تتفتح بعد. فالإنسان مكون وفق صورة أصلية، آدم أولي، عين ثابتة كلية، ونموذج بدئي كوني. ولهذا فالإنسان محمل بمسؤولية كبرى، هي تركيز لمسؤولية كونية في تحقيق تفتح وإفصاح لروح الكون. وبشكل آخر فإن الإنسان مرآة معرفة الذات للذات. وتطور الإنسان هو جلاء هذه المرآة أكثر فأكثر لتصبح قدرة على عكس نور ألطف وأشف.

وإن كان التطور الروحي للإنسان لا يلحظ عبر تاريخنا الطويل إلا من خلال تحقيقات فردية نادرة، لكننا لا نستطيع ألا نلحظ تطوراً روحياً جمعياً في تبلور نفسانية كلية أقدر على تعميم التجربة الفردية وعلى تمثلها. وهذا التطور الروحي الجمعي يتلخص بكلمات بسيطة؛ إنه الانبثاق المستمر عبر العصور لإنسانيات أكثر فأكثر مقدرة على التمييز والشعور والفهم. وفي الحقيقة يتبطن هذا التطور الجمعي على استئثار حقيقي بالنماذج البدئية الأصلية وعلى طرح كل الشذوذات التي يمكن أن تشوش صورتها، بما هي الينبوع الذي يمدنا باستمرار بالشكل المعرفي العام، وبما هي الخزان الذي تعود فتنصهر فيه معارفنا كافة.

ومن هنا، فإن المعرفة الإنسانية، في أقصى تجلياتها، ليست نهجاً منطقياً، وليست المعلومات المحصلة، وليست العلم والفلسفة والعقائد، بل هي التجربة الذاتية وقد عممت

مــن خلال المشاركة في لا شعور جمعي واحد وكلي. بل هي بشكل من الأشكال هذه الخلفية ذاتها، النمط البدئي الكوني نفسه وقد أبصر نفســه. وهذه المعرفة الجديــدة المنبثقة عن هذه الخلفية الكلية، عن هذا الإشعاع الكوني، لا يستطيــع إنسان الإفصاح عنها أو حجبها، وهي من جهة أخرى محرض كل إبداع معرفي فردي.

المعرفــة الروحيــة في جوهرهــا إذاً هي معرفة جمعية، ونادراً ما تتحقق على مستوى الفــرد. وذلك أنها معرفــة تطورية بالدرجة الأولى، معرفــة غير فكريــة أو نفسية فقط، بل كليــة تشمل الإنسانية جمعــاء. ومن هنا فإن تحقيــق الفرد لهذه لمعرفــة يعد بمثابة تواحــده مع الإنسانية والكون. بل إن معرفته هــذه نفسها تنعكــس على الإطــار الروحي للإنسانيــة. كــذا فإن هــذه المعرفة بما هي لا تخضــع لمعاييرنا ولمقاييسنــا، تفلت دوماً من إطــار التحديد والنمذجــة. ولهذا علينا أن نتوقع بكل تأكيــد بروز معرفة جديدة في المستقبــل، معرفة غير فكريــة وغير منطقية ولاتخضــع لمناهجنا الحاليــة، وذلك عندما تنصهــر معرفتنــا الحالية تمامــاً في بوتقة تطورنا الروحي.

مستقبل ارتقاء الكائن الإنساني

على الرغم من تمايز العقل والنفس خلال مسيرة التطور الطويلــة، لكنهما ظلا ينموان سوياً وبشــكل متناغم حتى فترة قريبة ترجع إلى آلاف قليلــة من السنين فقــط. فعندما بدأ العقل يبنــي مجرداته الخاصة، وتحديداً منطقــه الفلسفي المجرد، حكــم على نفسه بالانعزال عــن النفس. لقد اشتد عود العقل ونما بسرعة وبنى صرحــاً هائلاً من المنطق، وتوجه بإنجــازات علمية رفيعة. لكن ذلك لا يعنــي أن النفس توقفت عــن النمو. غير أن نموها خضع لتخلخــل مستمر مازال يتفاقم حتى الآن. فإن كان العقل قادراً على إيهامنا بإنجازاته بقوتــه وتوازنه، فإن النفس لم تفلح يوماً بإخفــاء ضعفها بعد ابتعاد العقل عنها، وهي لا تفتأ تناشده العــودة إليها والاستماع لخبرتهــا الطويلة الطويلة. وفي الحقيقة فإن النفس تعد بوتقة الإنســان التي تتبلور فيها طاقاتــه الجديــدة. وكما أن العقــل بزغ في النفس، كذلك فإن طاقة جديدة تتحضر اليوم فيها للانطلاق، وهــي طاقة وعي أعلى دون شك، ومشاركة العقل في تفتحها أمر لابد منه كي تأتي كاملة. ومع ذلــك، فثمة كيان أوسع بكثير مــن نفوسنا وعقولنــا الفردية، وهذا الكيان هو مــا يمكننا دعوته بالعقل الجمعي الــذي لم ينفصل ولن ينفصل أبدا عن النفس الجماعيــة. وهذا العقل الجمعــي هو أملنا الحقيقــي في مستقبل تطورنــا لأنه إذا صح

القول على صلة مباشرة بلاشعورنا الجمعي.

إن المعرفة الإنسانية ليست مجرد كم من المعنى، بل هي أيضاً الشكل الفني أو الذاتي لهذا المعنى، وبصورة أخرى فإن معرفتنا الحالية هي معرفة آنية سيمكن تجاوزها معلوماتياً في المستقبل. لكن هذه المعرفة ذاتها، بما هي طاقة نفسية وعقلية، ستظل فاعلة في الصيرورة التطورية المعرفية للإنسان من خلال شكلها الفني أو ذاتيتها التي ستذوب وتنصهر في بوتقة عقلنا الجمعي.

إن عجرفة الإنسان، وتسلطه واعتقاده أنه بات سيد الطبيعة وأن كل ما فيها مسخر له، وأن المعرفة باتت قاب قوسين أو أدنى منه، وأن علومه ستفك في القريب العاجل أسرار الحياة والوجود، كل ذلك أنساه أنه ما يزال يصعد، شاء أم أبى، سلم التطور، وأن عقلاً فوقياً سيبرز خلال آلاف السنين المقبلة، وإنساناً جديداً أعظم مقدرة وأكثر تفتحاً منا، أكثر توازناً دون شك، سيولد في مستقبل ليس بالبعيد. ولاشك أن هذا الإنسان سيتجاوز علومنا وعقائدنا ومناهج تفكيرنا، سيبني من جديد أسطورته!

إن كل ما يمكننا عمله اليوم، وما يجب علينا عمله، ليس المضي في علومنا التطبيقية العشوائية والإغراق في نتائجها، بل فهم موقعنا من الطبيعة، والعمل على إتاحة الفرصة للإنسان المقبل أن يأتي، لأنه سيحتاج بالتأكيد إلى الطبيعة كما احتجنا إليها، ولأنه سيحتاج إلينا أيضاً كما احتجنا لأسلافنا.

☆ ☆ ☆